



لا أظن أن كاتباً عربياً أو غير عربي لم يكتب خلال هذين اليومين عن معارك حلب، كلاً وفق وجهة نظره، والحقيقة أن السوريين لا يفهمهم كثيراً أن يحل بعضهم الأحداث من خلال تقاسم النفوذ الروسي - الأمريكي، ولا إن كانت السياسة الأمريكية تظهر الشماتة أو تُضمرها بيون وغطرسته، بعد أن رأت في حلب بداية مستنقع أفغانستان أخرى، ولم يعد السوريون يهتمون بواقعة لافروف وحده العجيب الغريب على الكتلة السورية حاملة المشروع التحرري، ووصف من يقودونها بأوصاف أقلها أنهم "أوغاد وأشرار ومنافقون"، أوصاف تليق به بجدارة ودون مبالغة، ولا بتصريحات ديموستورا ومشاريعه، لقد غسل السوريون أيديهم منهم جميعاً، ولم يعودوا مهتمين إلا بمتابعة ما يجري على الأرض السورية والحلبية وخاصة من تلامح فيما بين الفصائل المقاتلة من جهة وبينها وبين الأهالي من جهة أخرى، أطفالاً ونساءً ورجالاً كباراً أو عجزة.

السوريون اليوم أينما كانوا على الأرض السورية أو في المنافي والشتات، في المنازل أو المخيمات يتبعون بسعادة نسوها منذ سنوات أربع، حرب التحرير الشعبية بأجمل صورها، ذلك الشعار الذي سمعوا عنه منذ النكبة الفلسطينية والذي اجتث به الاستبداد أجمل مثقفيهم ومناضليهم ونخبة شبابهم، دون أن يلمسوا منه شيئاً أو يطابقوا بين مفرداته وواقعهم، اليوم يعيشونه مع ثوار حلب، ولم يعد يفهمهم إن حُررت حلب اليوم أو بعد بضعة أيام أو حتى شهور إنما المهم أن الشعب عرف طريقه وأن الخطوة الأولى في طريق الألف ميل قد بدأت. وعلى بوتين وطاقمه منذ اليوم أن يعد خسائره وعلى الغرب أن يتفرج شامتاً به على حساب الدماء السورية. وعلى الأمم المتحدة أن تتخذ القرارات اليوم لترميها غداً في سلة المهملات، وتعود كثور السوافي تفتش عن قرارات جديدة تقدمها للإعلام لإنقاذ ماء وجهها المراق.

لم يستطع بوتين ونظامه فهم الحالة السورية، ولم يعرف دلالة ظواهر المقاومة الشعبية السورية لاحتلاله وللاحتلال الإيراني -

الأسد ي معه، واستمر إعلامه يصف الثوار بالإرهابيين ليبرر لشعبه وللرأي العام العالمي وحشية اعتداءاته على الشعب السوري، بالرغم من أنه ابن المدرسة التي تاجرت طويلاً بمفهوم حرب التحرير الشعبية، لكنَ تلك المدرسة لم تُنْتَج في بلاده إلا مافيات الفساد والتسلط والاستبداد القروسطي، التي صدروها إلى بلدان كانت توسم بتحالفها معهم حلولاً لمشاكلها التنمية والتحريرية، فهل سقوط طائرته ومقتل طياريه جعله يستفيق من أوهامه وأحلامه القيصرية؟ هل افتتحت حرب التحرير الشعبية الحلية سجل خسارته؟ وقطعت طريق خارطة الحل السوري الذي رسمه مع الزميل العزيز الأمريكي وكأنهما يعيدان الرواية الروسية المشهورة "الأخوة الأعداء" إنهم أعداء في كل مكان من الكرة الأرضية، وأخوة في سوريا فقط.. يا لحظ السوريين العاذر منها.

لم يخف وزير دفاع بوتين نبأ سقوط الطائرة وموت طاقمها الخمسة، بل أراد أن يسبق إعلام الثورة السورية بتبلیغ الشعب الروسي بالخبر، ليكسب المصداقية المشكوك بها عندهم، ويفبرك أسباباً إنسانية لمهمتها يستدر من خلالها تعاطف شعبه والعالم معه، فهو وإعلامه متذكرون من أن الشعب الروسي يأخذ أخباره تسربياً من المعارضة السورية ليعرف أوضاع سلامته أبناءه أو عدمها، وحتى لا تتزلزل قناعة جمهورهم بهم كان رد فعلهم شديد القسوة على إسقاطها كما هو متوقع، ولأنه لا يستطيع أن يمارس على الثورة السورية ما مارسه على تركيا الدولة ورئيسها، صبَّ جام غضبه على المدنيين الذين سقطت الطائرة بين ظهرانيهم، فوجه سلاحه البحري والجوي وصواريشه المحرمة المعدة لحرب دول عظمى لتدمير الأخضر واليابس في القرية التي احتفل أهلها بالتخلص من أخطر سلاح ارتكب المجازر بحقهم ليل نهار وما زال، مستبيحاً سماء خالية من يواجهه وقادفاً شعباً جرده المجتمع الدولي من أي سلاح يدافع به عن نفسه.

إن رد فعل القيادة الروسية ذاك، والذي كان لا يقدر مستوى التوحش والاستهتار بحياة السوريين المدنيين والحد على بشريتهم، يضعف حجة استنكار سحل جثة الطيار " والتي أعلن رفضهم لها، معظم الثوار والنخبة السورية المثقفة" بالمقارنة مع التوحش الروسي السابق واللاحق . فهل انتظر بوتين أن يستقبل السوريون من يُذيقهم فنون العذاب بالورود والياسمين كما يُدجِّل على شعبه؟!

لم ترتد فرائص بوتين لإسقاط الطائرة فقط إنما أصابته الرعدة لأنكشاف موقفه أمام الشعب الروسي، وهو الذي وعدهم بأن يعود جنودهم لهم سالمين، فسوريا ليست أكثر من حقل تجارب لهم، لكن شعبه يكشفاليوم مدى كراهية السوريين لما يفعل بهم، ومدى إصرارهم على تحررهم منه ومن عصابته، والسوريون على ثقة تامة بأنهم إن استطاعوا بأساليبهم البسيطة أن يُكبدوا بوتين خسائر أكثر - وهم سيستطيعون - فسيتزلزل عرشه القيصري وسيهزم ويولى مع طاقمه الأبار.

منذ أن قرر بوتين دخول معارك التحرير السورية محلاً وغازياً ومناصراً لعصابة آثرت قتل شعبها على إصلاح أمرها والسامح لهواء الحرية أن يداعب أنوفه، مذاك الكتاب عرباً وغربياً يتوقعون له الهزيمة، وهاهي ساعة الحقيقة دقت وبدأت بوادر هزيمته، وعليه أن يُعد العدة منذ الآن لمسرح آخر يقدم فيه لشعبه مسرحية أخرى بطلها بوتين العظيم الذي سيعيد أمجاد القياصرة العظام قافزاً إلى الوراء مئتي سنة فوق الزمن.

المصادر: